وصف دمشق
من خلال نصوص نادرة لبعض الرحالين الأوربيين
من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر للميلاد

لم تزل دمشق منذ القدم واحدة من عواصم الدنيا المعدودات ، ولدت فيها حضارات وعاشت شعوب ودول ، وازدهرت علوم وثقافات وفنون . وما برحت هذه المدينة الخالدة دوماً قبلة أنظار الناس ، يتوافدون إليها من كل حدب وصوب ، ويتقاطرون طلباً للعلم والراحة والبهجة ، أو للسياحة والزيارة والتجارة .

ومن جملة هؤلاء الذين زاروا دمشق ، عدد كبير من الرّحالين الأوربيين الذين اعتادوا زيارة بلاد الشرق لأغراض شتى ؛ كالسفارات والبعثات أو السياحة والاستطلاع أو التجارة والحج ، وقد جذبتهم دمشق إليها بما أوتيته من جمال وغنى ومتعة للقاصد والوافد . ولم تأخذ هذه الرحلات شكلها الفعلي إلا في القرون الوسطى بمصاحبة الحملات الصّليبيّة على الشرق ، وبقيت بعد جلاء هذه الحملات ذات وتيرة منخفضة ، حتى حلول القرن الثامن عشر ، ثم بلغت رحلات الأوربيين إلى الشرق أوجها في القرن التاسع عشر بظهور المكتشفات الحديثة وحاجة الدول المعاصرة إلى التعامل والتبادل التجاري ، ثم سهولة طرق المواصلات نسبياً آنذاك .

بنتيجة ذلك ، وصلتنا مذكّرات مئات الرحلات إلى الشرق في القرنين المذكورين ، وأما ما قبل القرن الثامن عشر فلا نجد من هذه الرحلات سوى عدد ضئيل (باستثناء الأراضي المقدّسة : فلسطين) ، وهذا ما دعانا في هذه النشرة إلى التركيز على بعض هذه الرحلات النادرة .

نطالع في هذه النشرة أربعة نصوص قصيرة لأربعة رحّالين أوروبيين زاروا دمشق : الأولان منهم زارا المدينة في عهد المماليك ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (الثامن والتاسع الهجريين) ، أحدهما رحّالة إنكليزي والثاني بورغندي . والآخران زارا دمشق في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر (العاشر والحادي عشر الهجريين) ، وأحدهما رحّالة فرنسي ، والآخر بورتغالي .

دمشق في القرن الرابع عشر

نص للرحّالة الإنكليزي «جون موندفيل» 1322 - 1356 م

Sir John Maundeville

أشهر وأظرف رحّالي القرن الرابع عشر ، معاصر الرّحالة البندقي ماركو پولو ورحّالتنا الكبير ابن بطوطة الطّنجي ، يعرّفنا بنفسه بقوله : «أنا جون موندڤيل الفارس . . المولود في إنكلترة . . ركبتُ البحر في سنة 1322 م ، في يوم القديس ميخائيل . . وزرتُ بلاداً مختلفةً وجزراً كثيرة . .» .

شغلت أسفار موندڤيل ورواياته اهتمام معاصريه ، ففيها أوصاف لبلاد الشرق التي زارها : سورية ومصر والعراق وفلسطين . وقد نقل عن مصادر مختلفة أخباراً وقصصاً متنوعة (ومنها خرافي) حشاها في كتابه . ونستطيع أن نضمّ المؤلف إلى زمرة الدعاة إلى إعداد حملة صليبية جديدة .

نُشرت الرحلة في لندن عام 1848 ضمن مجموعة : «الرحلات الباكرة في فلسطين» ، بعناية توماس رايت :

Wright, Thomas : Early Travels in Palestine, London, 1848.

وفي كتاب رحلات جون موندفيل وصف ممتع لدمشق التي زارها أثناء حكم الدولة المملوكية بأيام السُّلطان الناصر محمد بن قلاوون (1294-1341 م) غالباً ، وكانت دمشق تمرّ بأزهى عهودها خلال حكم نائب الشام سيف الدّين تنكز [1] ، فصارت في عهده من بعد القاهرة أرقى مدن الشرق وأبهاها . وفيما يلي وصف موندڤيل للمدينة ، ترجمناه عن الإنكليزية :

بعد أن أخبرتُ القارئ عن سكان بعض البلاد التي مررتُ بها ، أعود الآن ثانية لأصف طريق العودة :

فمن أراضي الجليل - التي تحدّثتُ عنها - يعود المسافرون أدراجهم إلى دمشق ، وهي مدينة حسنة وفخمة جداً ، ومليئةٌ بكل أنواع البضائع . تبعد عن البحر ثلاثة أيام ، وعن القدس خمسة أيام . يحمل إليها التجار بضائعهم على الجمال والبغال والخيول والهجن والدواب الأخرى ، وتصل إليها البضائع بحراً من الهند وإيران والعراق وأرمينية ، ومن ممالك أخرى عديدة .

كانت هذه المدينة قد بنيت على يد «هيليزيوس داماسكوس» Helizeus Damascus ، الذي كان تابعاً لإبراهيم النبي وخادماً ، قبل مولد إسحاق . ولأنه كان يأمل أن يرث إبراهيم ، فقد بنى المدينة وسمّاها باسمه «داماسكوس» Damascus . وفي هذا المكان الذي أقيمت فيه دمشق قتل قابيل أخاه هابيلا . وبقرب دمشق جبل سنير Seir .

يوجد بدمشق عدد كبير من ينابيع المياه ، وتنتشر فيها وحولها البساتين البديعة المُترعة بعموم أصناف الفاكهة . إنها مدينة لا تُقارن من حيثُ جمال حدائقها للاستجمام . وهي مدينة كبيرة مليئة بالسكان ، ويدور بها سورٌ قويّ مزدوج ، وبها العديد من الأطبّاء .

---

(1) للمقارنة راجع نصوص الرحالين العرب حول دمشق آنذاك ، كابن فضل الله العمري وابن بطّوطة الطنجي ، في كتابنا : دمشق الشّام في نصوص الرّحالين ، 2 : 471-548 .

دمشق في القرن الرابع عشر

نص للرحّالة البورغوندي «برتراندون دى لا بروكيير» 1432 - 1433 م

Bertrandon de la Broquièrre

بورغوندية Bourgogne إمارة أوروبية تقع إلى الشرق من فرنسا أسّسها أقوام ذوو أصل جرماني . وفي بدايات عصر النهضة الأوروبية بلغت هذه الأمارة شأناً عظيماً من القوة في عهد دوقها فيليب الطيّب Philippe III le bon ، بحيث أضحت واحدة من أعظم الإمارات الأوروبية . ويبدو أن فيليب كانت تراود مخيلته أحلام غزو الشرق في حملة صليبية جديدة ، فأوفد برتراندون دى لا بروكيير في مهمة استطلاع أحوال الشرق مدنياً واقتصادياً وعسكرياً .

ولقد أظهر لنا دى لا بروكيير نفسه الغرض من كتاب رحلاته في المقدمة بقوله : «إنّه كتبه ليجذب قلوب الناس الراغبين في رؤية العالم ، وليرضي سيده دوق بورغوندية ، وليقدم المعلومات اللازمة عن البلاد الواقعة ما وراء البحار لمن تحدّثه نفسه من ملوك أوروبا وأمرائها بفتح بيت المقدس» .

أبحر دى لا بروكيير عام 1433 م متّجهاً إلى القدس ، في عهد السُّلطان المملوكي الأشرف بَرْسْبَاي ، وبعد زيارتها ذهب إلى باقي بلاد الشام دون أن يُتاح له زيارة مصر ، وتنقّل في هذه البلاد مفتّح الأذن والعين ، فوصف مدنها وصفاً مُسهباً وخصّ الطرق الحيوية بعناية دقيقة . وختم دى لا بروكيير كتابه بالحديث عن قوّة المماليك العسكرية وخططهم الحربية وسلاحهم وعدّتهم .

ونُشر كتاب برتراندون دى لا بروكيير في لندن عام 1848 بالإنكليزية ، ضمن مجموعة الرحلات المذكورة سابقاً ، بعناية توماس رايت :

Wright, Thomas : Early Travels in Palestine, London, 1848.

كما أعيد نشره بالفرنسية في باريس عام 1892 ، بإشراف شيفر :

Le Voyage d'Outremer, edit. Ch. Schefer, Paris, Leroux, 1892.

أما بالنسبة لزيارة دى لا بروكيير لدمشق عام 1433 م (= 836 هـ) ، فكانت في عهد النائب المملوكي جارقطلي ، الذي ولي دمشق بين 835-837 هـ ، وكان ذا سيرة حسنة . وها هو ذا النص فيما يلي :

تعرّفتُ في بيروت على تاجر بندقي يدعى جاك برفيزين فنصحني بالسفر إلى دمشق ، مؤكداً لي أنني سأجد هناك تجاراً من البندقية وقطالونية وفلورنسة وجنوة ، وغيرها . وتستغرق الرحلة من بيروت إلى دمشق يومين . والعادة المتّبعة عند المسلمين تجاه الأجانب في جميع أنحاء الشام هي أنه لا يُسمح لأجنبي بدخول الشام راكباً ، فلا يجرؤ أجنبي على دخولها إلاّ ماشياً .

وعلى هذا ، قام المكاري بإنزالنا أنا والسيد سانسون قبل دخول المدينة . ولم نكد ندخلها حتى هرع إلينا إثنا عشر عربياً التفّوا حولنا لمشاهدتنا ، وكنتُ ألبس قبعة ذات إطار عريض لم يعتد أهل البلاد على رؤية مثلها ، فرفع أحدهم عصا كانت بيده وأطاح بها عن رأسي . والحقّ أني هممتُ بأن ألطمه بجمع يدي لولا أن المكاري وقف بيننا ودفعني جانباً ، وجاء عمله هذا من حُسن حظي ، إذ أن حوالي ثلاثين أو أربعين شخصاً أحاطوا بنا في الحال ، ولا أدري ما الذي كان سيحلُّ بي لو أنني لطمته .

وأورد هذه الحادثة لأبيّن أن سكان دمشق قوم أشرار يجب على الإنسان أن يحتاط لنفسه بينهم ، ويحدث مثل هذا في جميع بلاد المسلمين . وثبت لي بالتجربة أن على الإنسان أن يتجنب المزاح معهم ، وألا يبدو خائفاً أو فقيراً ، إذ يصبح هدفاً لاحتقارهم . وعليه ألاّ يتظارهر بالغنى لأنهم شديدو الجشع ، كما يعرف جميع من نزلوا في يافا وتكلفوا مبالغ باهظة .

ويبلغ عدد أهل دمشق كما سمعتُ مائة ألف نسمة ، وهي مدينة غنية ومركز تجاري ، كما أنها ثاني مدينة في السلطنة بعد القاهرة . ويحفُّ بها من الشمال والجنوب سهل واسع ، وفي غربيها جبلٌ قامت على سفوحه ضواحيها . ويشقّ المدينة نهر تتفرع منه مجار عدة .

وتحيط الأسوار بالمدينة دون الضواحي ، وذلك لكبر الضواحي واتساعها . ولم أر أوسع من بساتينها ، ولا أفضل من فواكهها ، ولا أوفر من مياهها . ويقال : إن مياهها متوفرة إلى درجة تسمح بوجود نافورة في كل بيت .

ووالي دمشق نائب للسُّلطان ، ولكن السَّلاطين عملوا على كبح جماح الحكام وإبقائهم تحت إمرتهم بسبب ما قاموا به من ثورات . وفي دمشق قلعة حصينة تقوم على أحد جوانبها باتجاه الجبل ، وتحف بها الخنادق ، ويعيّن السلطان للقلعة نائباً ولا يسمح لنائب الشام بدخولها . وخربت القلعة في سنة 1400 م على يد تيمورلنك ، ولا تزال بقايا التخريب ظاهرة .

ويقوم بجانب بوّابة بولس حي كامل لم يعد بناؤه حتى الآن . وفي المدينة خان مخصص للودائع ، ولتأمين راحة التجار وإيداع بضائعهم ، ويدعى خان بركوت Berkot [1] لأنه كان في الأصل بيتاً لرجل يحمل هذا الاسم وأظنّه فرنسياً . وقد حملني على هذا الظن وجود شعار زهرة الزنبق منقوشاً على أحد أحجار البيت ، ويبدو هذا النقش قديماً قدم الجدران . ومهما يكن أصل هذا الرجل فقد كان شهماً ، ولا زال يتمتع بسمعة طيبة في هذه البلاد . ولم تقو جيوش الفرس والتتر خلال حياته أن تنتزع أية قطعة من الأراضي الشاميّة [2] ، إذ كان يخفّ إلى ملاقاة جيوشهم ويلاحقهم حتى ما وراء حلب عند النهر الفاصل بين الشام وفارس . وأستطيع أن أستنتج أن هذا النهر هو نهر جيحون الذي يصبّ في بلاد التركمان [3] .

---

(1) هكذا كتب اسمه بالأصل ، والحق أن بعض الرحالين الآخرين ذكروا أن إقامتهم بدمشق كانت مخصصة بخان برقوق ، ويبدو أن هذا ما عناه الكاتب . أما شعار زهرة الزنبق فرغم أنه استُعمل للملكية الفرنسية ، فهو قبل ذلك من شعارات (رنوك) أمراء المسلمين في القرون الوسيطة . انظر بحثنا «وصف دمشق في القرن السابع عشر» ، ص 42 .

(2) حكم السلطان المملوكي الظاهر برقوق بين 792-801 هـ (1390-1399م) وكان قد اعتاد الخروج من مصر إلى الشام لمناجزة المغول ، ونجح بصدهم . فبعد وفاته ، دخلوا الشام عام 803 هـ ، ودمّروا حلب ودمشق .

(3) كتب رايت ناشر الرحلة يقول : لا شك أن دى لا بروكيير يريد بهذا النهر نهر الفرات .

وقد وقر في ذهن أهل الشام أنه لو مُدَّ في أجله لما تمكن تيمورلنك من دخول بلادهم ، وعلى كل حال فقد أمر تيمورلنك عندما أحرق دمشق بالإبقاء على بيت بركوت ، وإقامة حارس ليحفظه من امتداد ألسنة اللهب إليه ، الأمر الذي حفظ البيت ودلّ على مروءة تيمورلنك .

وأهل دمشق يكرهون الأجانب . ويلجأ التجار الأوروبيون إلى بيوتهم في المساء ، ويقفلها عليهم أناس معينون لهذا الغرض ، ويفتحونها في صباح اليوم التالي عندما يروق لهم ذلك .

ولقيتُ في دمشق الكثيرين من تجار جنوة والبندقية وكلابريا وفلورنسة وفرنسا ، وقد جاء تجار فرنسا لشراء مختلف الأشياء ، وبخاصة التوابل ، وينوون نقلها إلى بلادهم بطريق بيروت في السفينة القادمة من ناربون . وبين هؤلاء التجار جاك كور Jacques Cœur الذي قام بأعمال عظيمة في فرنسا ، وكان يُشرف على ملابس الملك . وقد أخبرني بأن السفينة كانت إذ ذاك في ميناء الإسكندرية ، وأن السير أندرو ورفاقه الثلاثة سيركبونها من بيروت .

وسيوف دمشق خير السيوف ، وأفضل ما يُصنع في بلاد الشام [1] ، ومن الطريف أن يرى الإنسان طريقة الصنّاع في صقلها ، ويقومون بهذه العملية قبل سقيها ، ويستخدمون لهذا الغرض مقبضاً من الخشب ثُبّتت به قطعة من الحديد يُجرونها على شفرة النصل ، وبذلك يسوّونه كما يسوّى مسحج النجارة سطحَ الخشب . ثم يسقون النصل ويلمّعونه ، وهذا التلميع بلغ حدا من الإتقان بحيث أن المرء إذا أراد أن يصلح من شأن عمامته اتّخذ من نصل سيفه مرآة . وأما سقي السيوف فعلى غاية الإتقان ، ولم أر سيوفاً أمضى منها قط .

وتُصنع في دمشق وما حولها من الديار مرايا من المعدن تكبّر الأشياء كالزجاج العاكس للنور ، رأيتُ بعضها وقد عرّضت للشمس فعكست من الحرارة ما كان كافياً لحرق لوح من الخشب على بعد 15 أو 16 قدماً .

(1) هذا الكلام يدلّ على أن صناعة السيوف الأصيلة لم تنقرض بدمشق إثر نكبة تيمورلنك .

وفي اليوم التالي لوصولي شاهدتُ قافلة الحجاج عائدة من مكة ، وقد قيل إنها كانت تتألف من ثلاثة آلاف من الجمال . وفي الواقع استغرق دخول الحاج المدينة يومين وليلتين ، وقد كانت هذه المناسبة ، على مألوف القوم ، يوماً بالغاً في الحفاوة .

وقد خرج والي دمشق يحفُّ به مقدموا المدينة ، لاستقبال الحجيج إجلالاً للقرآن الذي كانوا يحملونه ، وهو كتاب الشريعة الذي خلَّفه محمد لأتباعه .

وكان ملفوفاً بغلاف من الحرير عليه كتابة عربية ، وكان الجمل الذي يحمله مجلّلاً بالحرير . وكان يتقدم الجمل أربعة من حملة المزمار والطبول والكوسات الكثيرة وكلها تدقّ ، وكان يحيط بالجمل نحو ثلاثين شخصاً يتنكّب بعضهم الأقواس ويشهر آخرون السيوف ، ويحمل غيرهم البنادق ويطلقون النيران بين الفنية والأخرى [1] .

وكان يتلو الجمل ثمانية رجال أجلاّء يعلون إبلاً سريعة العدو ، وخيولهم الجموحة مجلّلة بالقماش المزركش تعلوها سُروج مزخرفة ، على جاري عادة القوم هناك . وقد تلا ذلك هودج مغطى بالقماش الجميل يحمله جملان ، وفيه سيدة قريبة للسلطان ، وقد كان ثمة عدد كبير من هذه الدواب المجلّلة بالقصب المذهب . أما الحجيج فقد كانوا عرباً وأتراك وبرابرة ومغولاً وفُرساً ، وغير ذلك من المسلمين .

* * * * *

(1) كانت الأسلحة النارية معروفة في ذلك العصر ، بين أيدي فرسان المماليك ، وإن كان استخدامها غير منتشر على نطاق واسع ، كما كان الحال لدى العثمانيين في القرن التالي السادس عشر . راجع كتابنا : حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام ، صفحات مفقودة تُنشر للمرّة الأولى من كتاب «مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان» ، لابن طولون الصالحي ؛ دار الأوائل بدمشق 2002 ، ص 105 .

دمشق في القرن السادس عشر

نص للرحّالة الفرنسي «پيير بولون» 1546 - 1549 م

Pierre Belon du Mans

پيير بولون واحد من أشهر رحالي القرن السادس عشر ، قام برحلة دامت ثلاث سنوات ، زار فيها بلاد اليونان وبعض بلدان القارة الآسيوية ، وخصّ فلسطين بأوصاف مسهبة ، كما زار مصر والجزيرة العربية وبلداناً أخرى عديدة . وتتميز أوصافه بالدِّقة وقوة الملاحظة .

وطُبع كتاب رحلات بولون في باريس عام 1553 ، ثم تُرجم إلى اللاتينية وأعيد طبعه مراراً :

Les Observations de Plusieurs Singularités et Choses Mémorables trouvées en Crèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie, etc. (1546-1549), Paris, 1553 .

زار بولون دمشق في خلال رحلته ، وكان ذلك بعد ربع قرن من الفتح العثماني لبلاد الشام ، الذي تم عام 922 هـ = 1516 م . ولذا فيمكن لنا اعتبار وصفه لها ذا قيمة خاصة ، على اعتبار ندرة المصادر التي ذكرت دمشق في أعقاب الفتح مباشرة . وها هو ذا وصفه ، ترجمناه عن الفرنسية :

تتميّز دمشق بوفرة كبيرة في المياه ، تستمدها من نهر خريسورواس Chrysorrhoas (نهر الذهب) الذي يتعرّش بالبساتين المخضوضرة من منبعه حتى مصبّه ، أما فروعه في المدينة فهي ضيّقة ومتعرّجة . وفي المدينة بازار (أي سوق) بديع للغاية ، وهو مغطى في أعلاه . أما دور دمشق فتبدو بأجمل ما يكون وبناؤها بديع ، لكن ألطف ما فيها مداخلها المسقوفة التي تجلب لها التهوية والانتعاش .

ولدمشق أسوار مزدوجة كما هو الحال في القسطنطينية (استانبول) ، وليست خنادقها المملوءة بالماء على عمق كبير ، ومنها تسقى أشجار التوت الأبيض التي يُربى عليها دود القز لإنتاج الحرير . وعلى كلا السورين أبراج كثيرة متقاربة ؛ إذ أن كل برج مضلع ضخم يقوم بين اثنين آخرين أصغر منه ، وهما مستديران وأحدهما أكبر من الآخر . وهناك قلعة صغيرة مضلّعة خارج نطاق الأسوار غير أنها تبدو كما لو كانت لحماية المدينة فقط ، وذلك لأن الضواحي أكبر من المدينة مرتين ، كما أن الأسواق توجد في هذه الضواحي ، أما المتاجر والبزستانات (أسواق الأقمشة) فهي داخل نطاق الأسوار .

وأبواب المدينة مغطاة بصفائح من الحديد ، على عكس أبواب القاهرة المغطاة بالجلد . وإلى جهة الشرق يقع برج مضلّع نُقشت على أعلاه كتابة بحروف عربية يقال : إنها جعلت عليه حين استعيد من أيدي الصليبيين ؛ لأنه تحت هذه الكتابة قليلاً تشاهد زهرتا زنبق منقوشتان على الرُّخام ، وهما شعار فرنسا أو فلورنسة . ولكن إلى جانب هاتين الزنبقتين نُقش اسم شخص ، ينفي أن تكون هذه الشعارات عائدة إلى فرنسا أو فلورنسة [1] .

تبدو دكاكين الصناعات اليدوية كتلك التي في القاهرة . والبضائع في الشام عموماً وفي دمشق تباع مقابل وزنات نقدية تدعى الرطل Rotulo ، وهو يعادل سبع ليرات (7 Livres) ، كما في مصر تماماً . وفي المدينة دكاكين يُصنع فيها كاغد الورق الدمشقي . يحلجون القطن فيفصلون عنه البذور ، ولديهم لهذا الغرض صفحة من الحديد طولها قدم واحد ، وثخنها مقدار أصبعين يضغطون بها القطن فوق السندان ، فتخرج عندئذ البذور المكوّرة من أمام القطعة الحديديّة .

---

(1) ذكر هذا البرج أيضاً الرحالة الفرنسي لوران دارڤيو ووصفه في كتابه «مذكرات الفارس دارڤيو» ، ولقد قمنا بترجمة ما جاء عن دمشق فيه (عام 1660م) في كتابنا «وصف دمشق في القرن السابع عشر» . وعملنا بحثاً حول البرج المذكور وشعارات زهرة الزنبق بدمشق فيه ، ص 42-46 . والطريف أن البرج الذي كان مجهول الموقع في أيامنا ، تم اكتشاف قاعدته في حفريات أجريت عام 2000 ، بعدما كنّا نبّهنا إليه في كتابنا المرقوم .

دمشق في القرن السابع عشر

نص للرحالة البورتغالي «سيباشتياو مانريك» 1629 - 1643 م

Sebastião Manrique

مانريك راهب بورتغالي ، انطلق من بلاده عام 1629 م في رحلة طويلة إلى بلاد الشرق ، فزار بلداناً عديدةً في القارّتين الأوروبيّة والآسيويّة ، وتوجّه في آخر هذه الرّحلة إلى الشّرق الأقصى ، وزار كلا من الصّين والهند . وبعد ذلك قفل عائداً إلى بلاده ، فعاد إلى الشّرق الأوسط ماراً ببغداد ، ثمّ توجّه منها إلى دمشق التي مكث فيها شهراً ووصفها كما سنرى ، وذهب بعد ذلك إلى السّاحل الشّامي وغادر البلاد من مرفأ صيدا إلى قبرص فمالطة ، حتى وصل إلى بلده البرتغال ، حيث اختتم رحلته عام 1643 .

ويتّصف أسلوب مانريك بالرواية الشخصيّة ، فنجده يهتمّ بذكر ما وقع معه من أحداث أكثر من اهتمامه بوصف ما يرى . وكذلك يشتمل أسلوبه على ازدراء واضح لكلّ الشعوب التي زار بلادها ، وعند كلامه على سكّان الشّام ودمشق من المسلمين أتى بافتراءات في غاية الرقاعة والبذاءة ، وقد حذفنا ذلك من الترجمة الحاضرة ، كما كنّا حذفنا بعض ما يشين في نص دي لابروكيير ، وتركنا ما يُحتمل ليدلّ على نظرتهما .

قامت بنشر كتاب مانريك جمعيّة «هاكلوت» الجغرافية البريطانيّة The Hakluyt Society المختصّة بنشر كتب الرّحلات الأوربيّة إلى بلاد الشّرق [1] ، وطبع الكتاب في لندن عام 1917 .

The Travels of Fray Sebastien Manrique, London 1927.

وفيما يلي وصف مانريك لمدينة دمشق :

---

(1) نشرت الجمعية من هذه الرّحلات مئات الكتب ، التي تؤلف مكتبةً ضخمةً ، ولم يُترجم منها إلى العربيّة شيءٌ ، كما لو أنها كانت مختصّة بجزر الواق الواق ، وليس بلادنا .

بعد مضيّ سبعة وثلاثين يوماً على مغادرتنا بغداد ، حططنا الرّحال في مدينة دمشق العظيمة ، أو كَما يسمّيها أهلها «الشام» Sciam ، عاصمة بلاد الشام قاطبةً ، والتي يطلق عليها بعض الكتّاب - نظراً لمكانتها الفائقة - اسم «جنّة الأرض» . ولديهم من الأسباب الكثير لإطلاق هذه التسمية ، فبالإضافة إلى مناخها الصحّيّ الرائع العائد إلى هوائها اللّطيف النّقي ، تنعم بوفرة عظيمة في المياه الرّقراقة التي تجري في أنحاء المدينة قادمة من عدّة ينابيع .

والمدينة مشيّدة في وسط سهل فسيحٍ على سفح جبل لبنان Libanus ، وتبلغ مساحتها فرسخين . ويحيط بها سور مزدوج متين ، ترى في بعض جنباته تلك الشّعارات (الرنوك) الظّافرة العائدة إلى ذلك القائد الفرنسيّ الشّهير الماجد ، الذي خلّد اسمه بشجاعته ومآثره الباهرة ، حتى صار اسمه بين أسماء التسعة الأوائل من مشاهير الرجال [1]. ولا زال على السور المذكور بوّابة يُسمّيها المسيحيّون «بوّابةَ بولس» ، وقريباً منها يحدّدون المكان الذي كان يقوم عليه منزل حنانيا التقيّ .

وهذه المدينة محميّةٌ أيضاً بقلعة تقوم في وسطها ، وهي مبنيّة بشكل مربّع ومسوّرة بجدران صلبة ومحاطة بخًندق ، ولها مدخل واحد فقط في جهتها الشّرقيّة ، يُعبر إليه على جسر يمكن رفعُهُ إلى الأعلى عند الضرورة بواسطة سلاسل حديديّة .

والمدينة مجمّلة بحدائق غنّاء بهيجة ، وكذلك بعدّة مبان فخمة ، وأهمّ ما فيها مسجدها الكبير (أي المعبد الإسلامي) ، والتكيّة التي ينزِل بها الحجّاج [2] ، وحمّامات السُّوق ، ومنها ساحة فخمةٌ للغاية مربّعة الشّكل ومحاطةٌ بإيوانات جميلة ذات أقواس ، تمتلئ دائماً بمختلف أصناف الأطعمة .

---

(1) يلاحظ تمجيد الكاتب لفرنسا ، لأنّه على مذهب الكاثوليك الذي كانت فرنسا تُعدّ الحامي الأول له . وأخطأ الكاتب أيضاً بنسب شعار زهرة الزّنبق بدمشق إلى فرنسا (رغم أنّه لم يصرّح بذكرها لكنّه يعنيها) ، والغالب أنّها شعار نور الدّين الذي رمّم سور دمشق .
(2) أي التكيّة السّليمانية في المرج الأخضر ، التي بنيت عام 962 هـ / 1554-1555 م .

وهـذه المـآكل تنمـو بكميّـات وافـرة في ضواحـي هـذه المدينة الغنيّـة ، نظـراً لخصوبة تربتها وللسِّقاية الوافرة التي تنالها من المياه العذبة لنهري «أبانـا» و «فرفـر» المنسابَين فيها ، وهذا ما دعا النّعمان الآرامي إلى امتداحها في التوراة .

وثمّة سبب آخـر لمكانـة هـذه المياه عـدا عـن إخصابهـا للتربـة ، وهـو تميُّزهـا بخاصيّة معيّنـة تفيـد الصَّيقليّين (أتبـاع ڤولكـان Vulcan) - أي صنّـاع السّـيوف - بإنتاج أجود الشّفرات وأقساها ، وذلك بتسقيتها في هذه المياه .

وكذلك فإنّ حقول هذه البـلاد الخصبة تغـلّ زيتونـاً طيّبـاً ذا حبَّـات كبـيرة ، وبعض أشجار الزّيتون هنا تحمل في مواسمها ثماراً أكبر من الزيتون الضّخم الذَّائـع الصِّيت الذي ينمو في منطقة «الشّرف» Aexarafe في إشبيلية . ومما لا يقصر عـن هذا كلّه أهميّة في زيادة عظمة وغنـى مدينـة دمشـق ، وجـود مصنـع هـام بهـا كبير ومشهور [1] ، به أنوال عديدة تُنسـج عليهـا أصنـاف متعـددة مـن الأقمشـة الحريريّـة المُقصَّبة ، والمنسوجات المطرّزة بخيوط الذّهب والفضّة . وعدا هذا المصنع ، هناك في جميع أنحاء المدينة أنوال أخرى عديدة في كثير من الدور الخاصّة .

بعد أن أتممنا مشاهدة وتفحّص كلّ هذه الأشياء ، حصل ما منعنا من متابعة رحلتنا على التوّ ، وذلك لأنّ جميع الأقمشة العائدة إلى جمَّالنا ودليلنـا احتُجـزت بسبب بعض الدُّيون التي استحقّت عليه ، وطالما أن أقمشتنا أيضاً كانت معه ، فقد وجدنا أنفسنا مجبرين على الانتظار في هذه المدينة ما يزيـد علـى ثلاثـين يومـاً علـى حساب وقتنا .

وخلال هذه الفترة ، أُتيحت لنا فرصة مشاهدة رحيل قافلـة محمـل الحـج ، التي تذهب في كلّ سـنة إلـى مكّـة ، حاملـةً أصنافاً متنوّعـةً مـن البضـائع . وهـذه القافلة تتألف من ستة آلاف جمل كما علمنا ، ومن جمع غفير من الناس ، منهـم تجار ومنهم مكارية ، وفضلاً عن عدد كبير من الحجّاج الذّين يذّهبون بإيمان عميـق إلى مكّة .

(1) هذه معلومة هامة عن تركّز حرفة النسيج آنذاك بدمشق في مصنع محدد كبير .

ولقد كان من عادة هؤلاء البرابرة عندما يحين موعد انطلاق قافلة الحج تشكيل موكب عظيم وفخم ، وتسييره عبر الطرقات الرئيسيّة في المدينة . ويرافق هذا الموكب الباشا Baxa - أي والي دمشق - مصحوباً بالأُبَّهة ، ومعه مجموعة تمثّل أعيان البلد وأشرافها . ويسير الجميع مرتدين الحلل النفيسة الزّاهية ، ممتطين خيولهم المطهمة ذات الجلائل المزركشة ، بينما يسير الباشا وأمامه الشّعار المميّز الذي يشير إلى منصبه [1] ، وخلفه ثُلّة من العسكر النّظاميّين بلباسهم الرسميّ التركيّ . وفي وسط كلّ هذه الأُبّهة والأنساق تُحمل على طول الموكب كسوة خضراء من قماش الأطلس المطرّز بالذّهب ، إنّها هديّة سوف تقدّم إلى ضريح محمّد .

وعند اختتام مسيرة هذا الموكب الجليل تغادر القافلة المدينة . ثم بعد أيام من رحيلها قدّر الله هطول ثلوج كثيفة ، ممّا أدّى حسب ما سمعناه من أخبار إلى دفن ثمانية عشر ألفاً من الجمال تحت الثُّلوج ، والعديد من الفقراء وعامّة النّاس . ورغم أن ما حدث كان يتوجّب علينا النظر والتفكير ، فقد تلقَّيناه دون فرح ، وذلك لأنّه كان نذيراً بالعاصفة التي قد تصيبنا نحن ، وكذلك لأنّ الآباء الفرنسيسكان الكبوشيين المقدّسين ، الذين حللنا في بيتهم ، كانوا يقومون بكل جهد ممكن لتأمين سفرنا . وبخاصّة الأب الرّاهب ميگيل آنخيلو فرانثيس Miguel Angelo Frances الذي فضلاً عن مساعداته لنا ، كان يعمل ما بوسعه لتسفيرنا ، بما تتميّز به كنيسته من مساعدات كبيرة تلقّتها من أتباع نفس المذهب في سانت أوغستين ببلاد فارس وبعض المناطق الأخرى في الهند . ولهذا السبب لم يألُ هذا الرجل المخلص أي جهد لمساعدتنا .

وهكذا ، كنّا أتممنا استعداداتنا للانطلاق عندما صادف وصول قافلة إلى دمشق قادمة من حلب ، وكان بين ركّابها رجلان يهوديَّان من موظَّفي الجمرك . وعندما علم هذان اليهوديّان بقدوم بعض البورتغاليّين إلى دمشق من الهند في

(1) هذا الشعار الذي يميّز الباشوات الولاة كان يتألف من السنجق (الراية) العثمانية ، ويُعقد في أعلاه عدد من ذيول الفرس (طوغ أوچاليش) ، ويدل عددها على رتبة الباشا .

القافلة الآتية من بغداد ، قاما على الفور بالذّهاب إلى الباشا وإطلاعه على أمرنا ، وأخبراه بأنّنا أتينا محمّلين بالأحجار الكريمة ، وأنّنا تركنا سلوك الطّريق المعتاد بغية التّهرُّب من دفع المكوس الواجبة علينا في حلب ، وأنّنا كذلك أخفينا البضائع التي كانت بحوزتنا ، والتي تخصّ ملك البورتغال Grand Señor .

فعندما أعلم الباشا بهذا الأمر ، أرسل على الفور جنديّين من الينيجريّة (الإنكشارية) صحبة اليهوديّين ، فقدما رأساً إلى منزل الآباء الكبوشيّين ، علماً منهما أنّنا كنّا هناك . فلم يجدا فَي المنزل سوى الرَّاهب الأب ميگيل آنخيلو وزميلي في السَّفر الرّاهب آنسلم Anselm ، فأخذاهما فوراً إلى الباشا بعد أن قاما بختم المنزل بختمه . وفي هذه الأثناء سرعان ما وصلتنا الأخبار بما حدث إلى كنيسة الموارنة التي كنت قد ذهبتُ إليها لحضور القُدّاس ، مع الراهب الأب أنطونيو نانتانس Antonio Nanetense ، وهو شخص فرنسيّ . وعندما علم هذا الأخير بما وقع ، اصطحبني على التّو عبر بعض الأزقّة الخلفيّة وأودعني في منزل أحد الموارنة الكاثوليك . وقد تلقّانا هذا الشخص بكلّ حفاوة ، ومن ثمّ قام بإخفائي في مكان خفيٍّ تحت الأرض ؛ حيث لم يكن هناك من نور سوى ضوء شمعة واحدة .

وقد لبثتُ في هذا المكان تسعة أيام بمشقّة بالغة ، بينما قام هذان اليهوديّان الغادران باحتجاز كل ما وصلت إليه أيديهمًا منً أمتعة ، ولم يتركا لنا حتى الخرائط والأوراق التي كانت بحوزتنا . ولكنّهما عندما لم يعثرا على ما تصوّرا وجوده معنا ، خفتت حدّة تعنُّتهما وأطلقا الرّاهبين بعد معاملة قاسية . وحيال ما حدث ، قام الأب آنخيلو بإرسال الأب آنسلم إلى بيروت ، ومن بعده أرسلني إثر بضعة أيام على طريق صيدا التي وصلناها بفضل العناية الإلهية بسلام ، بعد مسيرة خمسة أيام . لكننا وصلنا شبه متجمّدين ، بسبب الثُّلوج الكثيفة التي أصابتنا على الطريق .

* * * * *

مصادر البحث :

1 – روّاد الشرق الإسلامي في العصور الوسطى : نقولا زيادة ، مطبعة المقتطف والمقطّم ، مصر 1943 .

2 – دمشق في عهد المماليك : نقولا زيادة ، منشورات مكتبة لبنان ، بيروت 1966 .

3 – وصف دمشق في القرن السابع عشر ، من مذكرات الفارس دارڤيو ، نشرها أحمد إيبش ، دمشق 1982 .

4 – دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للهجرة : أحمد الإيبش ود. قتيبة الشهابي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1998 .

5- Wright, Thomas: Early Travels in Palestine, London 1848.

6- Broquièrre, Bertrandon de la : Le Voyage d'Outremer, Editeur: Ch. Schefer, Paris, Leroux, 1892.

7- Belon du Mans, Pierre: Les Observations de Plusieurs Singularités et Choses Mémorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Arabie, etc. Paris, 1553.

8- Manrique, Sebastien: Travels of Fray Sebastien Manrique, published by Hakluyt Society, London, 1927.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

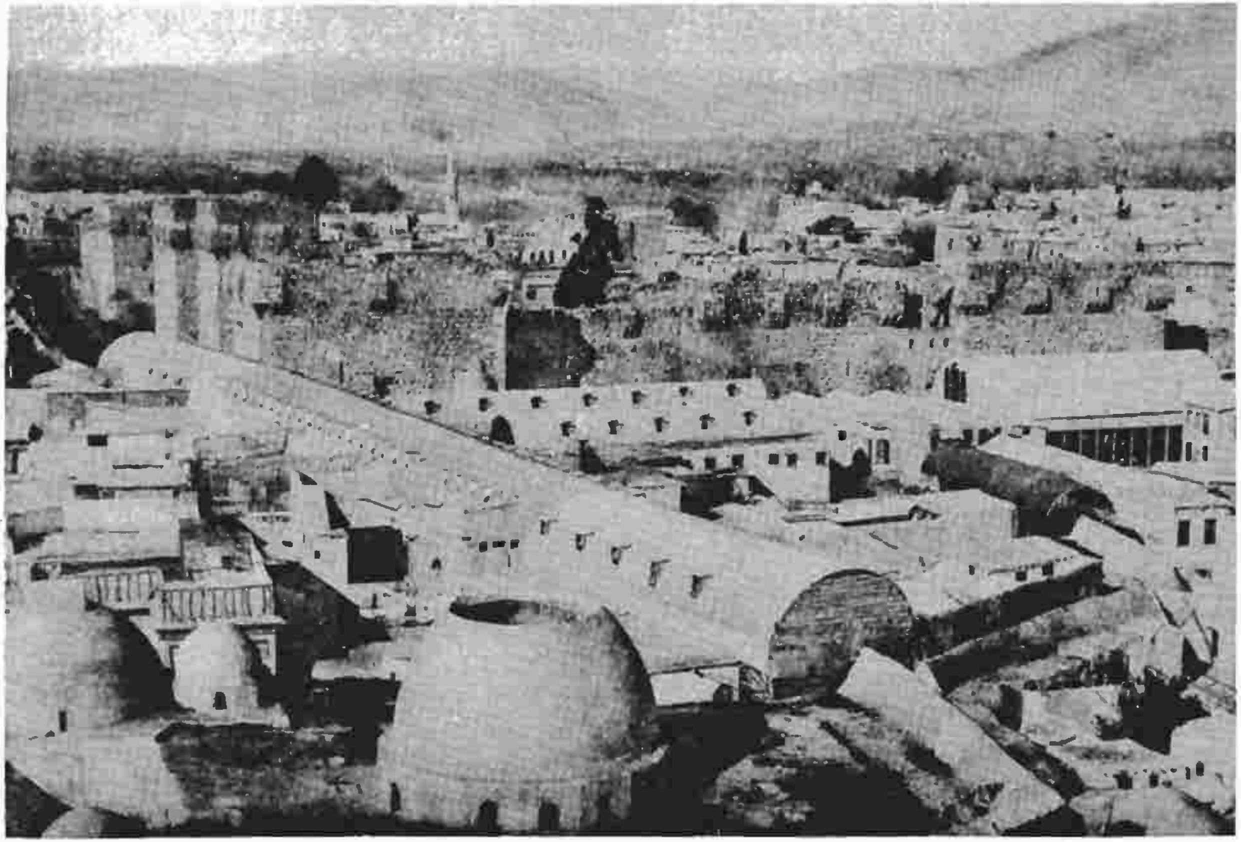

قلعة دمشق والجزء الغربي من سوق الحميدية ، صورة فوتوغرافية من القرن التاسع عشر

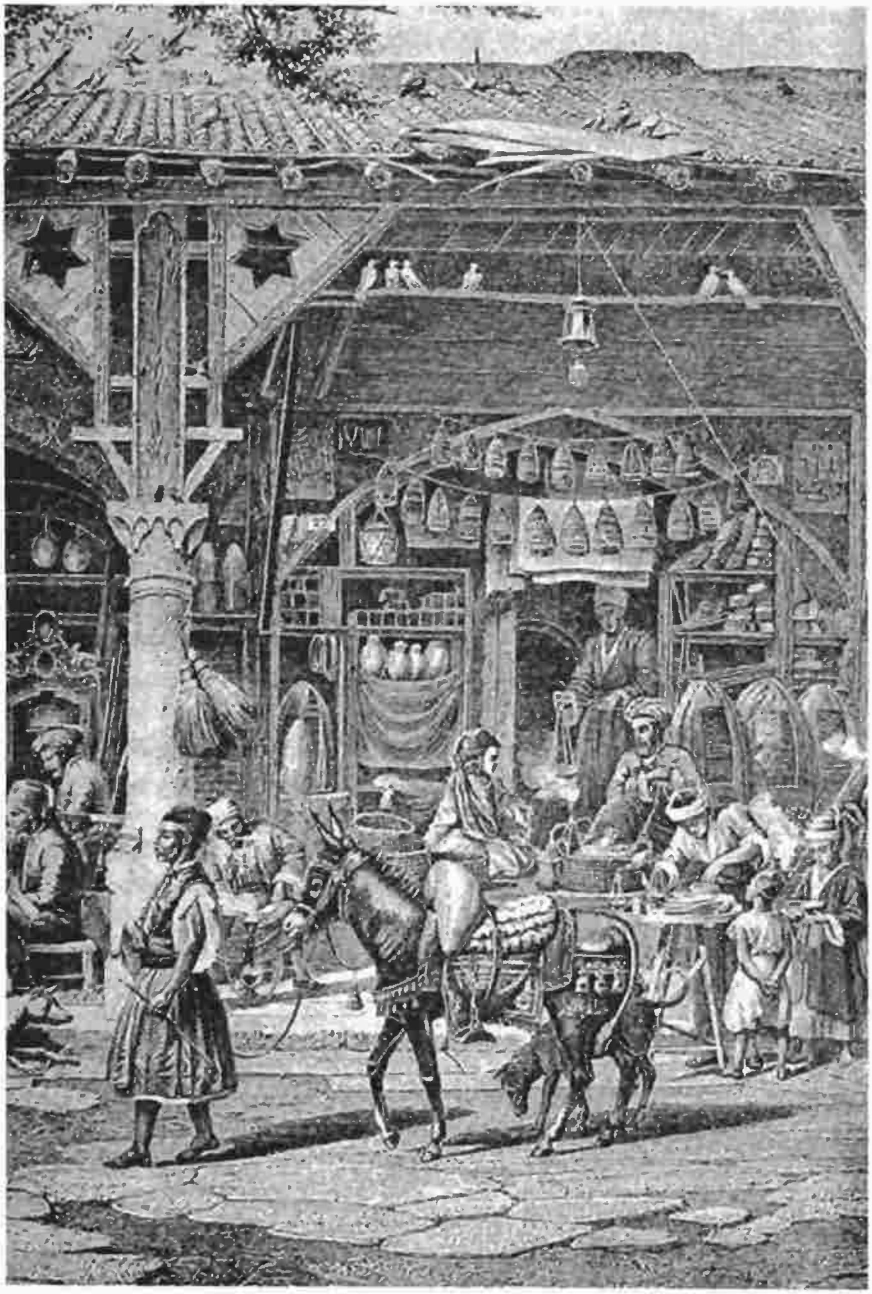

مشهد من سوق قديم بدمشق ، نقيشة تعود للقرن التاسع عشر